الفصل الأول

معنى التربية وأهميتها

تعريف التربية

يقول الأستاذ محمد رجاء حنفي عبد المتجلي: إن كلمة تربية مأخوة من ربا يربو، بمعنى نما ينمو، أو «يزيد» ومن معاني التربية بلوغ الشيء كماله على وجه التدريج. ولم يُعرف استخدام لفظ: «تربية» إلا في العصر الحديث؛ إذ كان العرب في القديم يستخدمون لفظ «التأديب»، وكانوا يطلقون على المعلم اسم «المؤدب».

ولقد ورد مفهوم التربية بمعناها الحديث في القرآن الكريم في موضعين اثنين، أحدهما: في سورة الإسراء حيث يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤].

والثاني: في سورة الشعراء حيث يقول المولى سبحانه: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨].

والتربية بوجه عام هي: تشكيل اتجاهات الأفراد وفق قيم معينة وإعانتهم على تكوين النظرة السليمة إلى الحياة، وهي تقترن بالتعليم الذي يصقل ملكات هؤلاء الأفراد وينمي مواهبهم واستعداداتهم في شتى المجالات.

والتربية الإسلامية معناها: تنمية ملكات الفرد وقدراته على اختلافها من أجل بلوغ كماله العقلي والنفسي. وتنمية قدرات المجتمع كذلك من أجل تحقيق تطور أفضل، وتقدم اجتماعي أكمل. وفق المبادئ والقيم الإسلامية.

ولا يجوز في الإسلام أن تقتصر التربية على تلقين الإنسان المعلومات، أو اكتساب المهارات الفنية، وإنما تهدف التربية إلى أبعد من ذلك، فهي تهدف إلى تهذيب الأخلاق،

سواء في ذلك أخلاق الأفراد، أو أخلاق المجتمع، ومن الواضح أن الاقتصار على العلم المادي وحده ينحرف بالفرد والمجتمعات إلى شرور لا نهاية لها، فلابد إذا من أن يقترن التعليم بالأخلاق[١].

ونقل أبو الحسن الندوي عن جون ديوتي هذا التعريف العام للتربية: أن التربية ليست إلا وسيلة راقية مهذبة لدعم العقيدة التي يؤمن بها شعب أو بلد، وتغذيتها بالإقناع الفكري القائم على الثقة والاعتزاز، وتسليحها بالدلائل العلمية إذا احتيج إليها، ووسيلة كريمة لتخليد هذه العقيدة، ونقلها سليمة إلى الأجيال القادمة، وأن أفضل تفسير لنظام التربية هي أنها السعي الحثيث المتواصل الذي يقوم به الآباء والمربون لإنشاء أبنائهم على الإيمان بالعقيدة التي يؤمنون بها، والنظرة التي ينظرون بها إلى الحياة والكون، وتربيتهم تربية تمكنهم من أن يكونوا ورثة الذي ورثه هؤلاء الآباء عن أجدادهم، مع الصلاحية الكافية للتقدم والتوسع في هذه الثروة[٢].

ويقول كذلك: «هي وظيفة اجتماعية، بمعنى أنها من ضرورات كل جماعة إنسانية تريد أن تحافظ على بقائها، وتتطور في سلم الرقي، وأنها يجب أن تتم في ضوء فلسفة اجتماعية، وفي مواقف اجتماعية كذلك، وأن الغاية من التربية هي إنشاء مواطنين يقومون بالوظائف الاجتماعية، التي منها الإبقاء على الثقافة، وترقيتها، وإصلاح عيوبها»[٣].

فهذا مفهوم عام للتربية عند جميع الأمم والشعوب.

---

(١) «مجلة الوعي الإسلامي» عدد [٩٣] جمادي الأولى [١٤٠٩] مقال بعنوان «قيم هي أساس التربية» [٣٠، ٣١] بتصرف.

(٢) «محاضرات الجامعة الإسلامية» «٣٦٦-٣٦٧» من مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، «الموسم الثقافي» [١٣٩٦-١٣٩٧].

(٣) «محاضرات الجامعة الإسلامية» [٣٧٩-٣٨٠] بتصرف.

أما التربية بالمنظور الإسلامي السلفي الذي نقصده ونهدف إليه وننادي به فهي العمل على بناء أفراد بعقائد سلفية صحيحة، ومفاهيم إسلامية نقية وأخلاق زكية، وأعمال مرضية، وتجهيزهم كلبنات لإعادة بناء المجتمع المسلم.

وبتعبير أخصر وأقرب: تربية جيل على نمط الصحابة رضي الله عنهم، يعتقدون معتقدهم، وينتهجون نهجهم في فهم الكتاب والسنة، ويقتدون بهم في أخلاقهم وأعمالهم وسمتهم.

فالواجب على الآباء والمربين أن يتأسُوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ويلتمسوا خطاه ويقفوا أثره! كيف ربى النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة الكرام؟ وكيف سَقاهم القرآن؟ وكيف رقاهم في درجات الإيمان؟ حتى صاروا ببركة تربيته صلى الله عليه وسلم قممًا شامخة في سماء المجد والرفعة، وضربوا أروع الأمثلة في الصبر والجهاد والجلاد، والصيام، والقيام، والدعوة لدين الملك العلام، وكانوا على أعلى مستوى من الإخلاص، والمحبة لله - عَزَّ وَجَلَّ -، والتوكل عليه، والرضا به، فبارك الله - عَزَّ وَجَلَّ - في دعوتهم، وسارت شمس الإسلام ببركة جهادهم وصبرهم تنير المعروف من الأرض، من مات منهم أفضى إلى موعود الله - عَزَّ وَجَلَّ - له بالجنة، ومن عاش صار أميرًا على قطر من الأقطار، أو مصر من الأمصار، وبقيت الأمة ببركة جهادهم وبذلهم منيعة الجانب، شامخة البنيان، راسخة الأركان، حتى خرج الناس عن منهاجهم، وظهرت البِدع والفِرق، وتسابق الناس إلى الدينار والدرهم، وضعفت الأحوال الإيمانية، والمفاهيم السلفية حتى صارت بلاد المسلمين كلأ مباحًا لكلِّ ظالم ومعتد، ومرتعًا خصبًا لترويج الأفكار الهدَّامة، ونشر المذاهب الباطلة، فعشش في بلاد المسلمين دُعاة العلمانية والإباحية، وصار المسلم الملتزم بدين الله - عَزَّ وَجَلَّ - وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم أذل من الشاة، فصار الإسلام غريبًا في بلاده، مُطاردًا من أهله وعشيرته، وهل بعد هذه الغربة غربة، وبعد هذا البلاد بلاء، فإلى الله المشتكى. فلا شك في أن التربية هي الخطوة الأولى لبناء المجتمع المسلم وإقامة

الخلافة الإسلامية التي بَشَّرَ بعودتها رسول الله ﷺ والتي حين تعود لابد أن تكون على مِنهاج النبوة كما أخبر النبي ﷺ .

فعلى الدُّعاة إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - أن يبدءوا بما بدأ به النبي ﷺ حتى ينتهوا بإذن الله إلى ما انتهى اليه من عز الإسلام والمسلمين، فما فارق النبي ﷺ الدنيا حتى قرت عينه بنصر الله والفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجًا وعم الإسلام جزيرة العرب، ثم فتح الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان البلاد شرقًا وغربًا، وشمالًا وجنوبًا حتى استنار أكثر المعروف من الأرض بدعوة الإسلام، وسارت دعوته سير الشمس في الأقطار، وسيبلغ بإذن الله دينه ما بلغ الليل والنهار، فلابد من معرفة المؤهلات التي أهلت الصحابة رضي الله عنهم للنصر والتمكين، والوصول إلى رضا رب العالمين، ثم تربية أجيال الصحوة على ما تربى عليه الصحابة الكرام، وقبل البدء بهذه التربية ينبغي أن يعلم أن الصحابة كانوا في زمن لم تكن فيه بدع وأهواء، وإنما ظهرت البدع في آخر عصرهم، مِصداقا لقول النبي ﷺ : «فإنه من يَعِشْ مِنْكُمْ بعدي فَسَيَرَى اخْتِلاَفًا كَثِيرًا»[(١)]، وقوله ﷺ : «وستفترق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة كلهم في النار إلا واحدة ...»[(٢)].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : «إنكم قد أصبحتم اليوم على الفطرة، وإنكم ستحدثون ويحدث لكم، فإذا رأيتم محدثة فعليكم بالعهد الأول».

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٢٦، ١٢٧)، وأبو داود (١٢/ ٣٥٩، ٣٦٠) «عون السنة»، والترمذي (١٠/ ١٤٤) «عارضة العلم»، وابن ماجه (٤٣) «المقدمة»، والدارمى (١/ ٤٤، ٤٥) «اتباع السنة، وقال الترمذي: «حسن صحيح وصححه الألباني».

(٢) رواه أبو داود (٤٥٧٢) السنة، والدارمي (٢/ ٤٢١)، وأحمد (٤/ ١٠٢)، والحاكم (١/ ١٢٨) وقال الحاكم هذه أسانيد تقوم به الحجة في تصحيح هذا الحديث ووافقه الذهبي وحسنه الحافظ وصححه شيخ الإسلام والشاطبي وهو في الصحيحة رقم (٢٠٤).

وقال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: لم يكن شئ من هذه الأهواء على عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبي بكر وعمر وعثمان.

وإنما ظهرت البدع في عهد الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد نادى علماء العصر وأئمة المسلمين بما يسمى «بالتصفية والتربية» فلابد من صحوة علمية مترشدة، تقوم بتصفية التراب الإسلامي مما علق به عبر القرون والأجيال، ثم تربية أجيال الصحوة على الإسلام الخالي من البدع والخرافات والمذاهب الباطلة والأقوال العاطلة على الهَدْيْ النبوي المبارك وعلى منهج السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

قال العلامة الألباني بركة الزمان وحسنة الأيام: لابد اليوم من أجل استئناف الحياة الإسلامية من القيام بهذين الواجبين «التصفية والتربية».

وأردت بالأول منهما أمورًا، تصفية العقيدة الإسلامية مما هو غريب عنها كالشرك، وجحد الصفات الإلهية، ورد الأحاديث الصحيحة لتعلقها بالعقيدة الصحيحة ونحوها.

الثاني- تصفية الفكر الإسلامي من الاجتهادات الخاطئة المخالفة للكتاب والسنة.

الثالث- تصفية كتب التفسير والفقه والرقائق وغيرها من الأحاديث الضعيفة والموضوعة والإسرائيليات المنكرة.

وأما الواجب الآخر فأريد به تربية الجيل الناشئ على هذا الإسلام المصفى من كل ما ذكر، تربية إسلامية صحيحة منذ نعومة أظفاره، دون أي تأثر بالتربية الغربية الكافرة.

ومما لا شك فيه أن تحقيق هذين الواجبين يتطلب جهودًا جبارة متعاونة من الجماعات الإسلامية المخلصة التي يهمها حقا إقامة المجتمع الإسلامي المنشود، كل في مجاله واختصاصه، وأما بقاؤنا راضين عن أوضاعنا، متفاخرين بكثرة عددنا، متواكلين على فضل ربنا، أو خروج المهدي، ونزول عيسى صائحين بأن الإسلام دستورنا،

جازمين بأننا سنقيم دولتنا، فذلك محال بل وضلال لمخالفته لسنة الله الكونية والشرعية معًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وقال ﷺ: «إذا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ سَلَّطَ الله عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حتى تَرْجِعُوا إلى دِينِكُمْ»(١).

من أجل ذلك قال أحد الدعاة الإسلاميين اليوم: «أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم تقم لكم في أرضكم» وهذا كلام جميل جدًّا، ولكن أجمل منه العمل به.

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

إلى أن قال رحمه الله: ثم لابد لك مع ذلك من العناية بتربية نفسك ومن يلوذ بك، تربية إسلامية صحيحة، لا شرقية ولا غربية، وتخليقها بالأخلاق المحمدية، وبذلك يصلح قلبك، وتسعد في الدنيا قبل الآخرة، وما الأمر الهام الذي ينشده دعاة الإسلام إلا أثر من آثار هذه السعادة، إذا أخذوا بأسبابها التي تجمعها كلمتا: «التصفية والتربية».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤](٢).

فهذا شيخ المحدثين وقد عاصر الدعوات المعاصرة في أكثر من نصف قرن من الزمان: يرى أن السبيل إلى عودة الإسلام لابد أن يكون على أساس تنقية الإسلام أولا من العقائد الباطلة، والآراء الفقهية التي لا تستند على دليل صحيح من الشرع المتين، ثم تربية شباب الصحوة على هذا الدين الخالص والإسلام المصفى، فنكون بذلك قد اهتدينا بهدي النبي ﷺ والصحابة الكرام.

---

(١) رواه أبو داود [٣٤٦٥] «البيوع»، وصححه الألباني بطرقه في «الصحيحة» رقم [١١].

(٢) «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (مقدمة المجلد الثاني).

وهذا المفكر الإسلامي «سيد قطب» رَحِمَهُ اللَّهُ يقول في مذكراته التي نشرت بعنوان: «لماذا أعدموني» وهي من آخر ما كتبه الأستاذ:

خرجت من السجن وفي تصوري صورة خاصة محددة لما يجب أن تكون عليه أية حركة إسلامية في الظروف العالمية والمحلية الحاضرة، وصورة لخطوات المنهج يجب أن تسير عليه وقد ذكرت ذلك من قبل، ولكني ألخصه هنا قبل البدء في التفصيلات:

١ - المجتمعات البشرية بجملتها قد بعدت عن فهم وإدراك معنى الإسلام ذاته، ولم تبتعد فقط عن الأخلاق الإسلامية والنظام الإسلامية والشريعة الإسلامية وإذن فأية حركة إسلامية يجب أن تبدأ من إعادة تفهيم الناس معنى الإسلام، ومدلول العقيدة، وهي أن تكون العبودية لله وحده، سواء في الاعتقاد بألوهيته وحده، أو تقديم الشعائر التعبدية له وحده، أو الخضوع والتحاكم إلى نظامه وشريعته وحدها.

٢ - الذين يستجيبون لهذا الفهم يؤخذ في تربيتهم على الأخلاق الإسلامية، وفي توعيتهم بدراسة الحركة الإسلامية، وتاريخها، وخط سير الإسلام في التعامل مع كل المعسكرات والمجتمعات البشرية، والعقبات التي كانت في طريقه، والتي لا تزال تتزايد بشدة وبخاصة من المعسكرات الصهيونية والصليبية الاستعمارية.

٣ - لا يجوز البدء بأي تنظيم إلا بعد وصول الأفراد إلى درجة عالية من فهم العقيدة، ومن الأخذ بالخلق الإسلامي في السلوك والتعامل، ومن الوعي الذي تقدم ذكره.

٤ - ليست المطالبة بإقامة النظام الإسلامي وتحكيم الشريعة الإسلامية هي نقطة البدء، ولكن نقطة البدء هي نقل المجتمعات ذاتها حُكامًا ومحكومين عن الطريق السالف إلى المفهومات الصحيحة، وتكوين قاعدة إن لم تشمل المجتمع كله فعلى الأقل تشمل عناصر وقِطاعات تملك التوجيه والتأثير في اتجاه المجتمع كله إلى الرغبة والعمل على إقامة النظام الإسلامي، وتحكيم الشريعة الإسلامية.

٥ – وبالتالي لا يكون الوصول إلى إقامة النظام الإسلامي وتحكيم الشريعة الإسلامية عن طريق انقلاب في الحكم يجئ من أعلى ولكن عن طريق تغيير في تصورات المجتمع كله، أو مجموعات كافية لتوجيه المجتمع كله، وفي قيمه، وأخلاقه، والتزامه بالإسلام، يجعل تحكيم نظامه وشريعته فريضة لابد منها في حسهم.

٦ – في الوقت ذاته تجب حماية هذه الحركة وهي سائرة في خطواتها، بحيث إذا اعتدي عليها وعلى أصحابها يرد الاعتداء[١].

وهذه الخطوات نوافقه عليها رَحِمَهُ اللَّهُ وهي لا تختلف كثيرًا عن المنهج السلفي الذي يهدف إلى تغيير عقائد الناس، وتطهير قلوبهم وتعبيدهم لله – عَزَّ وَجَلَّ –. فالمعركة الأولى مع النفوس كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرَّعْد: ١١]

فإذا رآنا الله – عَزَّ وَجَلَّ – أهلًا للتمكين يسر لنا أسباب التمكين، ومن علينا به كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النُّور: ٥٥].

إلا أن البند السادس لا نوافقه عليه، وليس عليه دليل من كتابٍ أو سنة، ولعل هذا البند الأخير كان هو السبب في إخفاق دعوته، والتعجيل به رَحِمَهُ اللَّهُ.

ويقول الدكتور يوسف القرضاوى حَفِظَهُ اللَّهُ في كتابه «الحل الإسلامي فريضة وضرورة، وتحت عنوان «حتى تنجح الحركة الإسلامية»: إنما تنجح الحركة الإسلامية في تحقيق الحل الإسلامي وإقامة المجتمع الإسلامي واستئناف حياة إسلامية إذا توفر لها أمور ثلاثة:

---

(١) نقلًا عن مذكراته التي نشرت بعنوان «لماذا أعدموني» (٤٣ ، ٤٤).

١ - جيل مسلم:

الأمر الأول جيل مسلم تقوم الحركة على تكوينه تكوينًا إسلاميًا صحيحًا متكاملًا. يكون هذا الجيل بمثابة الدعائم أو الركائز للمجتمع الإسلامي المنتظر.

وإذا كان دُعاة الاشتراكية يصرون على أن المجتمع الاشتراكي لا يبنيه إلا الاشتراكيون، فدُعاة الإسلام أولى أن يقولوا: إن المجتمع المسلم لا يبنيه إلا الإسلاميون.

ولهذا لم يقم المجتمع الإسلامي والحكم في المدينة إلا بعد تكوين الجيل الإسلامي في مكه، وعلى مناكب هؤلاء ومن انضم إليهم من خِيار الأنصار قامت الدولة المسلمة، ولقد سئل أحد الدعاة الإسلاميين يومًا: كيف يتصور حكم إسلامي راشد؟

فأجاب: بإحدى طريقتين: إما أن ينتقل الإيمان إلى قلوب الحاكمين وإما أن ينتقل الحكم إلى أيدي المؤمنين.

ولو أن الإيمان يسهل انتقاله إلى قلوب الحاكمين بالفعل لاختصرت الطريق اختصارًا، وكفى الله المؤمنين القتال.

ولكن يبدو أن هذا ليس أكثر من حلم لذيذ لا يمت إلى الواقع بصلة، فإن من شب على شئ مات عليه، وهؤلاء الحكام قد شبوا وشاخوا على العلمانية، وتتلمذوا صغارًا وكبارًا على الفكر الغربي بشقيه، فهيهات أن يولوا وجوههم شطر غيره، ولو كان هذا الغير هو دينهم الذي ورثوه عن آبائهم، والذي ارتضى الله لهم ارتضوه نظريًا لأنفسهم، فلم يبق إذن إلا الشطر الثاني، وهو أن ينتقل الحكم إلى أيدي المؤمنين، أيدي الجيل المسلم الذي آمن بالإسلام عقيدة وعبادة وخلقًا ورابطة ونظام حياة.

٢ - قاعدة جماهيرية إسلامية:

والأمر الثاني الذي يجب أن يتوافر للحركة الإسلامية الناجحة، وجود قاعدة جماهيرية لها من كافة طبقات الشعب، وذلك عن طريق رأي عام إسلامي يُناصر الفكرة

الإسلامية، ويحب دعاتها، ويكره أعداءها، ويحرص على انتصارها فلا يكفي أبدًا أن تربي الحركة جيلًا مسلمًا مخلصًا لا يحس به الشعب ولا يعرفه ولا يتحمس له، لأنه في عزلة عنه، يكلمه من بعيد، وينظر إليه من فوق.

٣ - التغلب على المعوقات:

الأمر الثالث الذي يجب أن يتوافر لنجاح الحركة الإسلامية هو التغلب على المعوقات والموانع التي تقف حائلا بينها وبين الوصول إلى أهدافها وغاياتها بكل سبيل، إذ لا يكفي لقيام أمر أن تتحقق موجباته بل لا بد أن تنتفي معوقاته أيضًا، أو كما يقول أهل الأصول الفقهية: وجود المقتضي وانتفاء المانع.

ومن المعوقات من جهة الشعب: الجهل بالإسلام - اليأس من انتصار الحركة الإسلامية - الخوف من الاضهاد المتكرر.

وهناك معوقات من جهة القوى المناوئة: مثل وجود نفوذ أجنبي قوي، وجود حكم عسكري علماني، وجود ظروف إقليمية أو دولية معاكسة، وهناك معوقات من داخل الحركة:

۞ **منها**: اختلاف الكلمة قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

۞ **ومنها**: حُب الدنيا، وهو يفتح منافذ واسعة لشياطين الجن وشياطين الإنس، ينفذون منها إلى قلوب الدعاة، فيسيل لعابهم إلى المناصب، وتتطلع نفوسهم إلى المكاسب.

۞ **ومنها**: حُب الذَّات وهو فرع من حب الدنيا أو جزء منه، ونعني به أن يحرص عضو الحركة على البروز والظهور، وألاَّ يعمل إلا في الصدارة أو الصفوف الأولى وأن يجري وراء بريق الشهرة والبحث عن الأضواء[1].

---

(١) «الحل الإسلامي فريضة وضرورة» (١٩٧-٢٠٣) باختصار ط. مكتبة وهبة.

ويقول الأستاذ محمد قطب: استعرضنا فيما مضى بعض القضايا التي تدور في ساحة العمل الإسلامي ويجدر بنا في ختام هذا الفصل المتعلق بالصحوة الإسلامية أن نلخص المهمة الملقاة على عاتق الدعوة في هذه المرحلة من تاريخها: «إن الدعوة مكلفة بواجب تبليغي، وواجب تربوي، مقتدية في ذلك بالمنهج النبوي في فترة الدعوة الأولى بمكة».

فأما الواجب التبليغي حين تسنح الفرص بلقاء الدعوة مع الجماهير فهو تعليمهم ما جهلوه من حقيقة لا إله إلا الله، وارتباطها الوثيق بتحكيم شريعة الله، والتأكيد لهم بأن ما أصاب المسلمين في حاضرهم من الذل والهوان والضعف والتخلف وغلبة الأعداء عليهم إنما كان سببه تفريغ لا إله إلا الله من مضمونها الحقيقي، وجعله كلمة تتعلق باللسان فحسب، وأن هذا ليس هو الإسلام الذي أنزله الله.

إنما الإسلام الذي يرضى الله عنه في الدنيا والآخرة هو نطق لا إله إلا الله محمد رسول الله، والعمل بمقتضاها، وتأدية الفرائض، وأن المسلمين لن يعودوا إلى التمكن في الأرض بأي مذهب من المذاهب، ولا أي منهج من المناهج المستوردة من الشرق أو الغرب، إنما بالرجوع الحق إلى الله أي عبادته وحده بلا شريك، سواء فيما يختص بالعقيدة، أو ما يختص بالشعائر التعبدية، أو ما يختص بتحكيم الله في كل أمر من الأمور، وأن استيراد المذاهب من الشرق والغرب خلال قرن من الزمان لم يزدهم إلا ضعفًا وهوانًا وذلة وضياعًا وبعدًا عن التمكن والاستقرار.

وأما الواجب التربوي: فهو أخطر ما تقوم به الدعوة في الحقيقة لأنه هو طريق الخلاص، وهو عمل دائب مستمر لا يتوقف مهما كانت الأحوال، في الشدة والرخاء سواء، في السعة وفي الضيق سواء.

والتربية المطلوبة – لإقامة القاعدة الإسلامية – تهدف إلى إخراج نماذج فذة، لا مجرد إخراج مسلمين عاديين، نماذج تكون كالأعمدة الراسية في البناء، لتحمل ثقل البناء فيما بعد.

وهذا يحتاج أولا إلى عقيدة صافية لا غبش فيها ولا بدع ولا انحرافات، كعقيدة السلف الأول، خالية من كل ما علق بها خلال الأجيال من إضافات وانحرافات خرجت بها عن عقيدة التوحيد الخالصة الصافية، وكادت تردها وثنية جاهلية.

ويحتاج ثانيًا إلى إدراكٍ واعٍ لمقتضيات هذه العقيدة، ومقتضياتها هي كل التكاليف وكل التوجيهات التي جاءت في كتاب الله - عَزَّ وَجَلَّ - وسنة رسوله ﷺ، ومن عظمة هذه التكاليف والتوجيهات، ومن شمولها لكل جوانب النفس، وكل جوانب الحياة كانت عظمة هذا الدين، وعظمة الأمة التي حملت هذا الدين، وأنشأت به ذلك الواقع الضخم الذي شهده التاريخ.

ويحتاج ثالثًا إلى تربية تحول هذه العقيدة إلى حقيقة سلوكية قائمة في عالم الواقع، وهذه التربية تحتاج إلى ترسيخ معاني الألوهية وتعميقها حتى تصبح يقينًا قلبيًا ينبني عليه سلوك واقعي، يقينًا لا يزلزله الابتلاء والشدة، ولا يزلزله الرخاء والسعة.

تحتاج إلى ترسيخ أخلاقيات لا إله إلا الله: حتى تصبح حقيقة سلوكية تنبثق انبثاقًا ذاتيًا من داخل النفس، وأخلاقيات لا إله إلا الله من السعة والشمول، بحيث تشمل كل سلوك يقوم به الإنسان، فالأخوة من أخلاقيات لا إله إلا الله، والتكافل من أخلاقيات لا إله إلا الله ، والجلد والصبر من أخلاقيات لا إله إلا الله، والشجاعة من أخلاقيات لا إله إلا الله، والنظام والانضباط من أخلاقيات لا إله إلا الله، ومعرفة الحق واتباعه من أخلاقيات لا إله إلا الله.

وتحتاج إلى الوعي السياسي بأحوال العالم المعاصرة، وأحوال المسلمين في ظروفهم الراهنة، ومكايد الأعداء ومؤامراتهم الدائمة ضد الإسلام، وتدسسهم إلى حياة المسلمين بالغزو الفكري وغيره من وسائل الحرب، وتحتاج إلى الوعي الحركي الذي لا يتعجل الخطى قبل أوانها، وفي الوقت نفسه لا يدع الفرصة تفلت منه دون أن يستفيد منها.

وتحتاج إلى موازنة في داخل الفرد وفي داخل الجماعة بين النزعة الفردية والنزعة الجماعية، بحيث لا يكون الفرد مستبدًا، ولا ناشزًا، ولا يكون في الوقت ذاته إمعة يساير المجموع إن أخطأ أو أصاب.

ولا تكون الجماعة مستبدة طاغية تسحق شخصية الفرد، ولا مفككة لا رابط لها ولا اتحاد، وتحتاج إلى وعي فقهي يعرف به الفرد ماذا يأتي وماذا يدع، ومتى يسمع ويطيع، ومتى يفضي به السمع والطاعة إلى الهلاك.

ومن أجل متطلبات هذه التربية وهي كثيرة وشاقة، وخاصة في أمة كادت تنسلخ من كل مقومات الإسلام، فلا ينبغي التعجيل في خطواتها، ولا ينبغي التعجيل في إدخال الجماهير في الدعوة على النطاق الواسع قبل أن يتيسر العدد الكافي من الدعاة والمربين الذين تربوا هم أنفسهم على المنهج الصحيح، والذين يستطيعون بدورهم أن يربوا على المنهج الصحيح، فهذا التعجيل لا يخدم الدعوة في شيء، إنما يعوقها في الحقيقة عن المسير[1].

ويقول الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق حَفِظَهُ اللَّهُ **في كتابه «خطوط رئيسية لبعث الأمة الإسلامية» .. وتحت عنوان «الطريق إلى بعث الأمة الإسلامية »**: «لا نستطيع أن نتصور أمة صالحة كاملة إلا بتصور جماعة لها عقيدة واحدة ومنهج واحد في الحياة، وبهذا تتحدد مقومات الأمة على النحو التالي: الجماعة، العقيدة (الإيمان)، والمنهج (التشريع).

أما الأفراد المسلمون فهم كثير والحمد الله، فهم يعدون بمئات الملايين، ولكن حالهم فكما عرفت في الفصلين السابقين.

وأما العقيدة الواحدة فموجودة باقية، ولكنها تحتاج إلى أمرين:

الأمر الأول: تخليصها مما علق بها عبر القرون من الانحراف والتأويل السخيف المشوه لحقيقتها والخرافة.

---

(١) «واقعنا المعاصر» (٥٢٢-٥٢٤).

الأمر الثاني: نقلها من بين الآيات والأحاديث وبطون الكتب إلى الصدور.

وأما المنهج فموجود أيضًا باق إلى يوم القيامة، ولكنه يحتاج إلى أمرين أيضًا:

الأمر الأول: تنقية هذا المنهج من البدع والانحراف والتأويل.

الأمر الثاني: وضع هذا المنهج موضع التنفيذ.

وبهذا سيتحدد العمل في ثلاث دوائر أساسية. ولكنه سيتفرع إلى شعب كثيرة.

الدائرة الأولى: تحديد العقيدة الواحدة وتصفيتها من الشوائب.

الدائرة الثانية: تخليص الشريعة الإسلامية وتنقيتها من البدع والغلو والتفريط.

الدائرة الثالثة: تهيئة الفرد المسلم ليقبل العقيدة الواضحة والشريعة الغراء السمحة الكريمة[1].

وبعد هذه النقول الطيبة لجماعة من العلماء والمفكرين، وهم كما ترى من جماعات مختلفة من جماعات الدعوة الإسلامية، والجميع يتفق على ضرورة التربية وأهميتها لإعادة بناء الإسلام، ورفع راية الملك العلام، اختلفت التعبيرات والتصورات، ولكنهم يتفقون على ضرورة التربية، والمخالف لهم ما خالفهم عن علم وهدى، ولكن عن عاطفة وهوى، واندفاع لا يستند إلى أدلة شرعية، أو حتى نظرة واقعية.

فالذين ينادون بتحكيم الشريعة مطالبون بتحكيم الشريعة في هذه القضية، كيف الطريق إلى عز الإسلام والمسلمين؟ وكيف الوصول إلى الهدف المنشود والوعد الموعود وهو انتصار الإسلام، ورفع راية الملك العلام؟

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]

قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

---

(١) خطوط رئيسية لبعث الأمة الإسلامية.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يُوسُف: ١٠٨]

فالاقتداء والاهتداء برسول الله ﷺ واجب في كل الأحوال وفي جميع القضايا، والتماس البركة والعزة في هديه المبارك ﷺ مما ينبغي أن يتقرر في قلب كل مسلم مخلص يرجو الله واليوم الآخر.

كيف بدأ النبي ﷺ الدعوة المباركة، وكيف انتقل بها من مرحلة إلى مرحلة، حتى جاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجًا.

هل بدأ بالصدام المسلح مع الجاهلية الجهلاء في فترة الاستضعاف وقلة العدد والعُدَد، أو أمر هو وأصحابه الكرام بكف الأيدي وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، أي بالتربية بالعبادات والصبر على الضيم، وتحمل الإيذاء والاستهزاء والتعذيب والتكذيب.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [النِّسَاء: ٧٧].

و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾ [الجَاثِيَة: ١٤].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: أي يصفحوا عنهم، ويتحملوا الأذى منهم، وهذا كان في ابتداء الإسلام أمروا أن يصبروا على أذى المشركين، ليكون ذلك لتأليف قلوبهم، ثم لما أصروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد.

وقال النبي ﷺ لما استأذنه أهل يثرب ليلة العقبة أن يميلوا على أهل منى فيقتلوهم: «إنا لم نؤمر بذلك»[1].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» للحافظ ابن كثير (٤/ ١٤٩) ط. دار المعرفة، بيروت. والحديث رواه ابن هشام عن ابن اسحاق (٢/ ١٨٧-٩٢) مطولًا، وعنه أحمد (٣/ ٤٦٠-٤٦٣)، والطبراني (١٩/ ٨٧-٩١)، وأورده الهيثمي في المجمع (٦/ ٤٢-٤٦)، وقال رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن اسحاق وهو مدلس وقد صرح بالسماع، وقال الألباني: هذا سند صحيح وصححه ابن حبان كما في «الفتح» (٧/ ٤٥٧).

قال سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ: «ربما كان ذلك لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد في بيئة معينة، لقوم معينين، وسط ظروف معينة، ومن أهداف التربية والإعداد في مثل هذه البيئة تربية نفس الفرد العربي على الصبر على ما لا يصبر عليه عادة من ضيم يقع على شخصه، أو على من يلوذون به».

وربما كان ذلك أيضًا لما يعلمه الله من أن كثيرين من المعاندين الذين يفتنون أوائل المسلمين عن دينهم ويعذبونهم ويؤذونهم هم بأنفسهم سيكونون من جُند الإسلام المخلصين، بل من قادته ألم يكن عمر بن الخطاب من بين أولئك؟

وربما كان أيضًا لقلة عدد المسلمين حينذاك، وانحصارهم في مكة حيث لم تبلغ الدعوة الى بقية الجزيرة[1].

فقد كانت الفترة المكية فترة تربية وإعداد ونشر للدعوة، وتحمل لكل ألوان الأذى حتى صار الصحابة ببركة تربية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ملوك الدنيا وقادتها وسادتها، كما أنهم كذلك ملوك في الآخرة.

فينبغي على القائمين على جماعات الدعوة للدين المتين أن لا يهملوا التربية إهمالًا، وأن يعتبروا الوقت الذي يبذل والجهد الذي ينفق في التربية لا فائدة فيه ولا عائدة، استعجالًا للنتائج، ورغبة في سرعة قطف الثمر، فيسلكون من الطرائق ما يخالف ما مضى عليه سيد الخلائق، ومن نظر بعين الإنصاف متجنبًا الاعتساف يرى أن مثل هذه الطرائق لا تثمر إلا الفتن والويلات والانتكاسات للدعوة الإسلامية، وكذلك لهؤلاء الأفراد الذين لم يأخذوا حظهم من التربية، وقد ينحرف كثير منهم عن الصراط المستقيم، لأنه يعرض نفسه لما لا طاقة له به من البلاء، نسأل الله السلامة والعافية في الدنيا والآخرة.

قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: «لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح عليه أمر أولها».

(١) «في ظلال القرآن» (٣/ ١٤٣٨).

وصلح أمر أولها بالتربية الصحيحة، بالصيام والقيام وتلاوة القرآن كما صلح باتباع سنة النبي ﷺ، والدخول في شرائع الإسلام كافة كما صلح كذلك بالبذل والإنفاق والجهاد والجلاد.

قال الأستاذ محمد قطب حفظه الله: «ويجب أن يكون واضحًا في أذهاننا كذلك أن المعركة بين الإسلام وأعدائه ليست معركة سريعة خاطفة، ولكنها معركة طويلة شاقة قد تستغرق عدة أجيال، فينبغي للقاعدة التي تنشأ للقيام بهذا العبء الضخم أن تربى لتكون طويلة النفس، شديدة الصبر، عميقة الإيمان بالله، عميقة التوكل عليه، مستعدة لما يتطلبه أمرها من المعاناة، قادرة على أن تبذل من نفسها، من جهدها ومالها ودمها وفكرها ما يحتاج إليه إزالة الغربة التي ألمت بالإسلام اليوم، واستنقاذ الغثاء من دوامة السيل، واستثباته مرة أخرى راسيًا في الأرض عميق الجذور، وحين تكون القاعدة بالمواصفات المطلوبة، بالحجم المناسب سيغير الله للناس لأنهم يكونون قد وفوا بالشرط.

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ [النور: ٥٥]»[1].

فعزة هذه الأمة ورفعتها ومجدها في التماس هدى النبي ﷺ، ونصر شريعته.

قال تعالى: ﴿ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧].

وقال تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠].

ونصر الله - عَزَّ وَجَلَّ - في تحليل حلاله، وتحريم حرامه، وإقامة دينه، وإحياء شريعته بالدعوة إليها، والبذل في سبيل رفعتها.

---

(١) «واقعنا المعاصر» [٥٢٥].

وانظر رحمك الله كيف خالفت طائفة من الجيش أمر رسول الله ﷺ، فكانت الهزيمة يوم أحد.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

فكيف إذا خالفت الجماعة كلها هدى رسول الله ﷺ، وقدموا قول علمائهم ومفتيهم على هديه المبارك، وزين لهم الشيطان سوء أعمالهم.

وكانت الهزيمة كذلك في بداية غزوة حنين لتعلق قلوب بعض مسلمي الفتح بالأسباب، وضعف التوكل وانتظار الخير والنصر من الواحد الوهاب.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

فهذه تربية عالية لهذه الأمة الغالية، تنقية مستمرة للقلوب والجوارح مما يسخط الله - عَزَّ وَجَلَّ -، ويخالف شريعته، حتى تخلص توحيدها لله - عَزَّ وَجَلَّ - وتسلم قيادتها لرسوله ﷺ.

أرسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتابا إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فقال: لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله ﷺ، وصاحب رسول الله ﷺ، فإن الله - عَزَّ وَجَلَّ - لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكنه يمحو السيئ بالحسن، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء، الله ربهم وهم عباده، يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت النبي ﷺ عليه منذ بعث الى أن فارقنا فالزمه، فإنه الأمر هذه عظتي إياك إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك، وكنت من الخاسرين.

ونختم بهذه الكلمة في أهمية التربية الجادة للأستاذ محمد بن عبد الله الدويش يقول حفظه الله: والأمة تعيش هذا العصر واقعًا فريدًا، ومرحلة ليست على مثال سابق، فعصور

التردي التي مرت بالأمة لم تصل إلى حد أن تسقط الحواجز بين الأمة وأعدائها، فتصبح تابعة لهم، مستوردة لمناهجهم، ولقد كان الحكم في تلك المراحل للشريعة رغم الانحرافات في التطبيق، ولم تجرؤ الأمة على استبدال الشريعة وتنحيتها إلا في هذا العصر.

ومناهج التربية والإعلام الوافدة إنما هي نتاج هذا العصر، والتي ساهمت مساهمة فعالة في تشكيل وصياغة عقلية مسلم هذا العصر ليخرج خليطًا متنافرًا من ثقافات الشرق والغرب.

فالمشكلة التي تعانيها الأمة اليوم أبعد من أن تكون مجرد انتشار لمعاصٍ ظاهرة، وإخلالًا بأحكام ظاهرة، وإن كان ما نذكر نذير خطر.

ومن ثم فالمشروع الإسلامي ما لم يأخذ على عاتقه إعادة صياغة متكاملة للفرد والمجتمعات الإسلامية في التفكير والتصورات والقيم والموازين فهو عاجز عن تحقيق الهدف الذي يسعى إليه.

وهذا التغيير وإعادة الصياغة يحتاجان جهدًا تربويًّا ضخمًا لتربية أدوات ووسائل التغيير من الدعاة والمصلحين، وجهدًا لتربية مجتمعات المسلمين، ومن ثم كانت التربية الجادة ضرورة.

وحيث تتبوأ التربية هذه المنزلة، وترقى الى هذه الأهمية فهي تحتاج إلى المزيد من الدراسات والبحوث، ومراجعة الأوضاع القائمة وغربلتها.

أما حين تكون مرحلة العواطف الجياشة، والحماسة المتأججة نهاية المطاف، ومنتهى الغايات فتصاغ البرامج التربوية للوصول لها وتحقيقها فحسب فلن تحقق الدعوة غايتها[1].

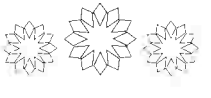

(١) «التربية الجادة ضرورة» لمحمد بن عبد الله الدويش (٧-٨) ط. دار الصفوة.